رواية الشقيقتين

للاب مغري لامنس اليسوعي

(تابع لما قبل)

٦

لو دخلتَ ايها القارئ اللبيب بعد ثمانية أيام مضت على ما سردنا من الاخبار في بعض مخادع دار القنصل ب . لرأيتَ كهلاً جالساً تلوح على وجهه أمارات الحزن وملامح الكآبة . وما ذاك سوى البارون دي لَنس بيد انَّ ما جرى لخطيبته أثَّر في مزاجه فتحسبهُ وهو في ريعان شبابه كأنَّهُ ارمى على الخمسين من عمره

اما الحجرة التي يسكنها البارون فهي غرفة خطيبته وردة . فنافذها المقفلة التي لا يدخلها الَّا نور طفيف جعلها اشبه بغرفة تُعرض بها الموتى . فهذه الحجرة كانت بقيت على حالتها من النظام والترتيب كما كانت في عشيَّة يوم العرس فكان كلُّ شيء في موضعه حيث تركتهُ الفتاة بعد دخولها على المدعوين وكان فراشها ذاتهُ في حالته من التجعُّد لم تمسَّهُ يدٌ لتهندمهُ وكذا بقيت الوسادة والمصدغة وبقرب الفراش صوَانةٌ فيها خفَّان وقفافيز ومبذلةٌ وردية البارون

هذا وانَّ القنصل مع كلّ آل بيته من الخشم والخدم كانوا في مدَّة هذا الاسبوع بذلوا الجدَّ والجهد ليقفوا للفتاة الضائعة على خبر في البلدة او ارباضها فلم يُجدهم ذلك نفعاً . وكان كلُّ من يسمع بهذه القصَّة الغريبة لا يشكُّ في انَّ الابنة التجأت الى الانتحار وكان الناس يسندون قولهم هذا الى ما كتبتهُ وردة في بطاقة وداعها انَّ من يطلبها لا يجد لها اثرًا ولا خبرًا

وكان في ثاني يوم فَقْد الفتاة قد رست صباحاً في الميناء سفينة روسية متهيِّئة لان تُقلع عند الظهر فطلب القنصل من ادارة المراكب الروسية لعلَّهُ تكون الابنة قد ركبت السفينة لكنَّهم بعد التفتيش اجاب العمَّال ان المطلوبة ليست من عداد الركَّاب

ولم يدعُ اهل الصبية ان يرسلوا الى مدن سوريَّة والاسكندرية تلغرافات للاستعلام عن الامر فكانت الاجوبة كلُّها بلا فائدة . فكفَّ القنصل عن البحث لئلَّا يطَّلع على سرّ ما أفظع يجعل حياتهُ وحياة ذويه امرَّ من الحنظل . اما القوَّاسون والخدم فكانوا

يطلقون لالسنتهم كلَّ عنان فيخترعون قصصاً اغرب من احاديث خرافة

وكان البارون دي لينس طلب ان يُسلَّم الى يدهِ مفتاح غرفة خطيبتهِ ليكون هذا المسكن ذكرًا وسلوانًا لهُ في بلائهِ ولذلك كان ابقى كلَّ الاثاث على حالهِ ساعة غابت الفتاة عن نظرهِ فكان كلَّ يوم ينفرد متنزِّلًا في هذه الغرفة لتقرّ عينهُ بما يراهُ من بقايا ذكرها لعلَّهُ يجد شرحًا لهذا السرّ المكنون. فكان قلبهُ يُلقي السؤال على كلّ هذه الذخائر ليطّلع بها على حقيقة الامر فما كانت تجيبهُ سؤالًا كما لم ينل الفتى وزوجتهُ جوابًا عن ابنتهما بعد الاصغاء في السؤال

ولسائل ان يسأل وسوسنّة ماذا كان من امرها وعندها كان نصف الخبر

نقول ان سوسنة بعد ما اصابها من الاضطراب لغيبة اختها بتيت مطرقةً ساكتة الّا انهُ كان يلوح على وجهها انها جُهينة الخبر قادرةٌ على فكّ هذا اللغز بيد انَّهُ لم يجسر احدٌ ان يلقي عليها سؤالًا في هذا الصدد حتّى ألحَّت عليها يومًا امّها وناشدتها الله بان تعلمها عن حقيقة الامر ان كانت تعرف منهُ شيئًا. فتنهَّدت الصعداء ثم قالت:

« الويل لي يا اماه قد ماتت شقيقتي فداء عني. . فاني انا سبّبتُ لها تلك الحداد الذي اصابنا جميعًا قالت هذا واخذت في العويل ثم القت بنفسها في حضن والدتها واردفت:

« قد استولى على قلبي حبّ البارون دي لينس فكان هذا الهيام في باطني كأ كلة كادت تنهك قواي وتذهب بحياتي الى يوم خطبة اختي وردة. فأحسَّت هذه بكمين صدري. ولمَّا غُشي عليَّ في ليلة العرس وتوارد الكلُّ فأحدقوا بي لمساعدتي خطر ببالها فكر مشؤوم حملها على ان تفعل ما فعلت. فخرجت دون ان يشعر بها احد ودخلت في غرفتي فوجدت بين اوراقي الخاصّة رقعة كنت كتبتُ فيها ما يلي:

« لو درت اختي ما استعر في صدري من اللهيب وانّها وحدها قادرة على ان تخمد فيَّ هذه النار لتنازلت لي عن حقوقها ولولا ذلك لفاتتني السعادة وصارت شقيقتي الحبيبة علة هلاكي وسبب موتي »

فقرأت اختي هذه الاسطر وألحتها بما تنظرين. قالت هذا وناولت سوسنة انها الورقة فاذا بها مكتوب في ذيلها:

« كلاَّ يا سوسنة لا تموتين لأجلي بل كوني سعيدة في مدى حياتك ولستُ انا بأهلةٍ ان اعكّر كأس سعادتك مع ما اعرفهُ فيك من السجايا الحميدة والمزايا الفريدة. ولا اشكُّ

انّ البارون خُلق لكِ كما خُلقتِ لهُ فتُوبي عني في الحظوى عندهُ . فهذه وصيتي او بالاحرى امري اليك . واعلمي انّ اختكِ عند الفراق لا تجد سلواناً الّا اذا تحقّقت كونكِ سعيدةً وأنكِ صرتِ بارونة دي لينس شقيقتك وردة

فما سمعت امّ سوسنة هذا الكلام حتّى اضطربت حواسّها وخامر قلبها القلق بيد انّها تجلّدت وسألت ابنتها : وما قولك في وردة أترين انّها بعدُ في قيد الحياة ؟

— لا ادري يا امّاه الّا انّ في هذا الامر الذي وجّهتْهُ اليّ مع قولها انّها ستسافر بسعادتي ما يشعر بانّ اختي لم تمت . . . ولكن كيف يميل قلب خطيبها اليّ بعد ما طرأ على قلبهِ من الحزن بسببي ؟

٧

بعد هذا الحديث بين الابنة وامّها بقيت الامور على احوالها في الدار القنصالية مدّة شهر كامل . امّا البارون دي لينس فلم يزل يتردّد الى غرفة وردة يقضي فيها الساعات الطويلة . وكان جعلها كمتحف جمع فيهِ كلّ ما اصابهُ من حوائج خطيبتهِ فنظّمهُ فيها تنظيماً حسناً . فكان تارة ينظر الى ما طرّزتهُ يدها من الثياب وحيناً يطالع كتاب صلاتها او يقرأ صفحات من رسائلها الخاصّة فلا يدع شيئاً ممّا يذكّرهُ بتلك التي شاطرها يوماً قلبهُ وكثيراً ما كان يأخذ هذه الذخائر فيضمّها الى قلبهِ لتقوم عندهُ بمقام شخصها الحبيب

وكانت سوسنة تحاول ان تضمّد جراح قلب البارون الّا ان مساعيها كانت تذهب سدًى . امّا الامّ فبقيت زمناً طويلاً وهي لم تجسر ان تُعلم احدًا بما اوحت اليها ابنتها . وفي آخر الامر أفشت سرّها لزوجها القنصل آملةً انهُ بدرايتهِ وحذقهِ يدبّر كلّ شيء على احسن طريقة . فما علم القنصل بحقيقة الامر حتى رأى لهذه الحالة الحرجة مناصاً

فلما كان مساء بعض ايّام كانون الثاني انتشمت الغيوم بعد ان همت طويلاً الامطار المدرارة وعاد للسماء صفاء اديمها وركدت مياه البحر فتحلّت بزرقة ناصعة بينما كان جبل السنين يظهر للعيان عن بُعد مشتملاً ببردة ثاوجهِ الغرّاء . واشجار اللوز زاهية بانوارها الفاغمة وازدهت وُبى بيروت بزهور الربيع فصارت كانها روض نضير . فانتهز القنصل هذه الفرصة ليعرض على صهرهِ السفر الى جهات بلاد اليونان . وكانت غايتهُ بذلك ان يشغل بال البارون بزيارة اصحابهِ ويعيد لابنتهِ سوسنة ما فقدتهُ من الراحة والسكينة . فاجاب البارون الى سؤلهِ وبعد إعداد لوازم السفر ركبوا البحر طالبين مرفأ البيره

وفي واقع الامر ما كاد البارون مع عائلة القنصل يطأ ارض اليونان حتى انتعشت قواه وسكن بلباله وهدأ خاطره . وما لبث اصدقاؤه ان باتوه زواراً ليقرأوا عليه السلام ورافق وصوله اكتشاف عدد وافر من العاديات والدمى والرسوم القديمة البديعة العمل فكنت تراه يتردد الى المتاحف ليطلع على هذه البقايا الجليلة ويكتب عنها مقالات يرسلها الى المجلات العلمية

ولما كان البارون لا يجهل شيئاً من احوال اثينة وتاريخها وآثارها القديمة اقام نفسه كدليل لحميه القنصل ولعائلته فزاروا اولاً هيكل الالاهة ميزفة الشهير بالپرتينون ثم سائر ابنية المدينة فرداً فرداً . وكان البارون يصف لهم رسم البلد فيشبهه بقرص كبير من الحلوى قسم الى اربعة اقسام فالخطان المتعرضان هما سكتا إيرل وهرميس وفي الوسط مركز البلاط الملكي الذي بلغت نفقاته ثمانية الاف الف من الدوخمات وهو مع ذلك اشبه بثكنة جنود او بمستشفى المرضى ويحدق بالبلاط بستان ليس سواه في البلدة جميعاً ليستظل به الاهلون

وكان عند دخول البارون وعائلة القنصل الى اثينة قد حُشدت فيها الجنود فتُعرض يومياً على مرأى الشعب . وكان الناس يزدحمون في القهاوي فتعلو فيها جلبتهم فيقرأون الجرائد ويصرخون طالبين اشهار الحرب وينسبون رئيس الوزارة تريكوپيس الى الجبن والفشل . فكان القنصل وهو من مشاهير الضباط لا يتماسك عن الضحك لما يراه في جنود اليونان من سوء النظام وقلة النظافة في الملابس الرسمية وما كان يزيده عجباً كثرة الضباط بالنسبة الى عدد الجنود وكان اكثرهم من الشبان خرجوا حديثاً في المكتب العسكري وهم مع ذلك يتباهون بهنداهم وقبعاتهم الواسعة المستطيلة واطوافهم العريضة الصفراء

وكان القنصل يفكر في ما عسى ان يفعل هؤلاء الضباط المرجّلو الشعر المطيبون بانواع الطيب كالنساء وكيف تقوم لهم قائمة بازاء اعدائهم وهم يظنون ان ثرثرة الكلام والبذخ يكفيان للفوز بالانتصار

الا ان البارون كان معجباً بفرقة الافزن (evzones) فيشي على ملابسهم الوطنية وهي القسطان والشملة المزركشة والنعال الحمر المعقّفة الرأس في طرفها زعَث ازرق تدعى بالقساروكاس (tsaroukas) وتبلغ قيمة لبس كل فرد ثلاثة آلاف فرنك . وهذه الفرقة اختصها الملك لنفسه بصفة حرس شرف

(ستأتي البقية)